الأبستمولوجيا عند كارل مانهايم

إعداد

الباحثة / إيمان حسن محمد سليمان

باحث ماجستير في الآداب تخصص / الفلسفة

تاريخ الاستلام: ٣٠ / ٩ / ٢٠١٩م

تاريخ القبول: ٥ / ١١/ ٢٠١٩م

مُقَدِّمَة

أولاً : تعريف الأبستمولوجيا " نظرية المعرفة"-:

قبل البدء في عرض تفاصيل عن علم اجتماع المعرفة عند مانهايم يجب التعرف على نظرية المعرفة من حيث ماهيتها الفلسفية وأنواعها ومصادرها وطبيعتها وموضوعاتها، فإذا أردنا تعريف نظرية المعرفة والتي تأتينا بعدة معاني وتعريفات بحيث يختلف كل تعريف بحسب الفيلسوف وتخصصه ووجهة نظره فإذا قلنا بأن المعرفة هي تحصيل العلم أو العمليات العقلية فسوف يترتب على هذا التعريف أن يكون البحث في المعرفة فرعاً من علم النفس الذي يهتم بدراسة الإحساس والإدراك والتذكر والتخيل والنسيان والانتباه والتفكير أو الاضطرابات النفسية وغيرها . وإذا قلنا بأن المعرفة هي البحث فيما تم لنا اكتسابه فقد يعتقد البعض أنها تدخل ضمن دراسات المنطق الذي يتناول بالبحث موضوعات قوانين الفكر الأساسية والتصورات والتصديقات ولكن هناك تعريف أهم و أشمل ومؤداه دعامة متينة لا غنى عنها في هذه العلوم , وتبحث نظرية المعرفة knowlwdge theory of في مبادئ المعرفة الإنسانية وطبيعتها ومصدرها وقيمتها وحدودها كما تبحث أيضاً في الصلة بين الذات المدركة والموضوع المدرك وبيان إلى أي مدى تكون تصوراتنا مطابقة لما يؤخذ فعلاً مستقلاً عن الذهن وقد تأتي المعرفة بمعنى الأبستمولوجيا epistemology ويعني هذا المصطلح الدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها وتهدف إلى تحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية.

أن المعرفة تبحث في المعقولات العامة التي تشترك أغلب العلوم الجزئية في الانتفاع بها وتعد هذه المعقولات إصرها الأساسية زد على ذلك أن الاهتمام بتحليل المعرفة لم يعد قاصراً على نظرية المعرفة بل أمتد ليشمل نظرية المعلومات والذكاء الاصطناعي والعلم المعرفي وهي من فروع العلم التجريبي . إن المعرفة التي نسعى إلى

تحليل بنيتها يتجاذبها رأيان من حيث إمكانيتها ، رأي يذهب إلى أن الإنسان وحده هو الذي يعرف ما هو صادق أو كاذب ورأي ينكر ذلك ويحظى الرأي الأول بتأييد معظم الفلاسفة على طول تاريخ الفلسفة و أصحاب الرأي الثاني هم الشكاك قديماً وحديثاً .

يتضح تقدم معالجة الفلاسفة لمدلول نظرية المعرفة في اختلاف نظرتهم إليها و إلى الموضوعات التي تعالجها وقد عبر هذا الاختلاف عن نفسه في انقسام الفلاسفة إلى قسمين قسم يضم الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين الذين يتصورون أن موضوع المعرفة هو الأبستمولوجيا بمعنى نقد المعرفة العلمية عن طريق التحليل والتمحيص لكل ما يقع تحت أيديهم من مناهج علمية وتصورات ومصادرات أساسية ينطلق منها العلماء بحثاً عن قوانين يصيغونها ونظريات يعلنون عنها ، وقسم آخر يضم الفلاسفة الإنجليز المعاصرين ومن والاهم وهم الذين يتصورون المعرفة من ضمن موضوعات فلسفة العلوم أو فرع من فروعها ويحددون للأبستمولوجيا موضوعات مختلفة منها مناقشة موقف الشك المطلق في المعرفة في المعرفة أو إمكان المعرفة الموضوعية أو استحالتها .

يعتبر الفيلسوف الاسكتلندي " جيمس فريدرك" (١٨٠٨-١٨٦٤) هو من صاغ مصطلح الأبستمولوجيا حين ألف كتابه مبادئ الميتافزيقا إذ قسم الفلسفة إلى قسمين : أنطولوجيا وأبستمولوجيا ، أما المعنى المعاصر لمصطلح الأبستمولوجيا في الفلسفة العربية والفرنسية فهو الدراسة النقدية للمعرفة العلمية ، ويعرفها " لالاند" في معجمه الفلسفي بأنها فلسفة العلوم وهي بهذا تختلف عن علم مناهج العلوم (ميثودولوجيا) لأن الأبستمولوجيا تدرس بشكل نقدي مبادئ كافة أنواع العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها .

ويمكننا الإشارة في هذا السياق إلى موقف " برتراندرسل " عن موضوعات المعرفة وهو تمييزه بين ما يسميه " المعرفة بالإدراك المباشر و المعرفة بالوصف " وموضوع النوع الأول من المعرفة هو المعطيات الحسية ومعطيات الذاكرة وبديهيات المنطق والرياضة ، وموضوع النوع الثاني هو الأشخاص والأشياء المادية ، والمعرفة بالإدراك المباشر معرفة حدسية لا يجوز فيها الخطأ ولا تسبقها مقدمات ، بينما المعرفة بالوصف تسبقها مقدمات ويجوز فيها الخطأ فمعرفتي للأشخاص ليست معرفة مباشرة وإنما هي بالوصف فالاسم "سقراط" هو في الحقيقة اختصار لوصف وكذلك معرفتي لأي شيء مادي إنما هي معرفة لمجموعة مركبة من معطيات حسية راهنة وممكنة أو أن تصوري للشيء المادي هو تأليف منطقي من معطيات حسية. ونلاحظ ثانياً أن أحد الموضوعات الأساسية للمعرفة هي المعرفة بقضايا صادقة تدل على وقائع وتدخل في الوقائع معرفتنا التي رأيناها كشهود عيان، كما تدخل فيها أيضاً تلك المعارف التي نكتسبها من العلوم التجريبية إذ يمكن صياغة كل ذلك في قضايا ، ونلاحظ أخيراً أن هناك مجالاً آخر للمعرفة يتعلق باكتساب مهارات يدوية أو ذهنية ويرجع الفضل في إبراز هذا النوع من المعرفة إلى " جلبرت رايل " الذي ميز بين " معرفة كيف ومعرفة أن " حيث أنه يقصد بالمعرفة الأولى اكتساب مهارات، وبالمعرفة الثانية معرفة قضايا.

لقد رسم "كانط" صورة المناقشة المعاصرة للمعرفة الأولية وحدد لها اتجاهها إلى حد كبير وذلك عندما وضع ثلاثة تمييزات : الأول معرفي ، والثاني ميتافزيقي والثالث دلالي والتمييز المعرفي يقسم المعرفة إلى فئتين واسعتين : المعرفة الأولية والمعرفة البعدية ويصف كانط المعرفة الأولية على أنها المعرفة المستقلة عن كل تجربة . والتمييز الثاني تمييز ميتافزيقي بين

القضـايا الضـرورية والممكنـة والقضـية الصـادقة بصـورة ضـرورية هـي التـي تكـون صـادقة ولا يمكـن أن تكـون كاذبـة ، والقضـية الصـادقة بصـورة ممكنـة هـي التـي تكـون صـادقة ويمكـن أن تكـون كاذبـة . والتمييـز الثالـث والأخيـر هـو التمييـز الـدلالي بـين القضـايا التحليليـة والقضـايا التركيبيـة وإذا كـان التمييـز بـين المعرفـة الأوليـة والمعرفـة البعديـة يعتمـد علـى منـاهج التحقـق فـإن التمييـز بـين القضـايا التحليلية والتركيبية يرتكز على العلاقة الدلالية بين الموضوع والمحمول .

مصادر المعرفة :ـ

عندما نطرح السؤال عن مصدر المعرفة تظهر الإجابة أمامنا متمثلة بصفة رئيسية في ثلاثة اتجاهات مختلفة وهي : المذهب العقلي rationalism ، والمذهب التجريبي empirism ، والمذهب النقدي criticism وفيما يلي لمحة سريعة عن هذه المذاهب.

المذهب العقلي :ـ

يذهب الاتجاه العقلي إلى القول بأن كل معرفة تستحق هذا الاسم تنبع من الفكر أو من العقل (والعقل هنا يعني الفكر أيضاً لأن العقل يطلق على ملكة الفكر) وهذه المعرفة التي تنبع من العقل تعتبر معرفة أولية وهذا يعني أنها مستقلة عن الخبرة لأن المعرفة التي تأتينا من الخبرة وخاصةً الخبرة الحسية تعد معرفة غير واضحة ومشوشة وكثيراً ما تخدع وهي على كل حال لا تنطوي على ضمان الحقيقة ، ويعتبر المذهب العقلي هو الصورة الأولى لنظرية المعرفة العلمية وقد كان ثمرة لتكوين المذاهب الميتافزيقية الكبرى باعتباره تبريراً معرفياً أما المذهب التجريبي كمذهب فإنه متأخر عن المذهب العقلي حيث نشأ في شكل نقد للمذاهب الميتافزيقية ونظرياتها في المعرفة.

المذهب التجريبي :ـ

يأخذ المذهب التجريبي اتجاها مضاداً للمذهب العقلي ويرفض مثل هذه التأملات الميتافزيقية للمذهب العقلي ويعتبرها تلاعباً بالمفاهيم ويؤكد أنه لو كانت هناك مفاهيم وقضايا فكرية فإنه يجب أن يكون ذلك عند كل الناس ويقول "جون لوك " في ذلك: "إنها (أي الأفكار) ليست مطبوعة في العقل بطبيعتها لأنها ليست معروفة بالنسبة للأطفال والبلهاء" فالأفكار الفطرية إذاً لا وجود لها في المذهب التجريبي ، ويجيب لوك عن مصدر المعرفة بقوله : " إنها تأتي من الخبرة وعليها تتأسس معارفنا جميعاً وأن ملاحظتنا التي تتجه إما إلى موضوعات مدركة إدراكاً حسياً خارجياً أو إلى عمليات العقل التي ندركها ونتأمل فيها هي التي تأتي لعقلنا بمادة الفكر كلها وهذان هما مصدرا المعرفة اللذان تنبع منهما كل الأفكار التي نمتلكها أو التي نستطيع بطبيعة الحال أن نمتلكها " .

المذهب النقدي :ـ

إن المذهب النقدي هو مجموعة مبادئ وأسس فنية يدعو إليها النقاد ويلتزم بها الكتاب في إنتاجهم وتطلق كلمة النقد على كل نزعة فلسفية تقوم على جعل نظرية المعرفة الأساس لكل مبحث فلسفي ويطلق النقد أيضاً على مذهب كانط ذاته فالمذهب النقدي هو مذهب يرى ضرورة مناقشة المعلومات كلها ويرى أنه ليس ثمة معرفة مقبولة إلا بعد بحث وتمحيص وأن أساس النقد عند كانط الفحص والاختبار ، فنقد العقل الخالص امتحان قيمته من حيث إنه يتوخى الحقيقة ونقد العقل العملي وفحص قيمته من حيث إنه يدبر العمل ونقد الحكم امتحان العقل من حيث انه ملكة للحكم ولُب النقدية القول بأن هناك استعمالا مشروعاً صحيحاً لتصورات الفهم الخالص ومبادئه فهي تحدد اختصاص العقل وحدوده وتلتمس شرائط كل معرفة عقلية وتبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا وتصوراتنا .

المبحث الثاني : المعرفة ظاهرة اجتماعية :ـ

إذا كانت المعرفة هي معرفة الواقع أو الوجود عموماً فقدت اعتمدت الفلسفة خلال تاريخها الطويل على أن المعرفة عملية عقلية بحتة لادورللأطر الاجتماعية فيها ولذلك كانت تبحث دائماً في ملكة العقل من حيث هي المنتجة لتلك المعرفة ، وقد أدى هذا البحث إلى انقسامها إلى مذاهب ومدارس يحاول كلاً منها تحديد طبيعة المعرفة فظهرت المذاهب المادية والمثالية والعقلية والتجريبية التي اعتمدت على الاستقراء حيناً وعلى الاستدلال والحدس حيناً آخر وكانت تلك المذاهب تتناول المعرفة بذاتها وبشكل مستقل عن الأنساق الاجتماعية التي تظهر في سياقها فقد نظرت الفلسفة إلى المعرفة على أنها عملية عقلية مجردة يمكن مقاربتها عن طريق التأمل الفلسفي . مع ظهور القرن التاسع عشر وبروز علم اجتماع المعرفة فلم تعد دراسة ماهية المعرفة ومفاهيمها مسألة فلسفية بحتة بقدر ما أصبحت مسألة اجتماعية و أصبح للمعرفة أصول وسياق اجتماعي بحيث ظهرت دراسة العوامل الاجتماعية للمعرفة بأنها الجزء الأكثر أهمية عند دراسة المعرفة ، وأدى ذلك إلى ظهور المنبع الاجتماعي للمعرفة بدلاً من المنبع الفلسفي العقلي وهكذا بدأت عملية البحث عن الأبعاد الاجتماعية للمعرفة تأخذ دورها في الدراسات الاجتماعية والعلمية والفلسفية والسياسية ومختلف العلوم الإنسانية وكل هذا أدى إلى أتساع رقعة موضوعات علم اجتماع المعرفة بحيث أصبحت تشمل العلاقة بين الأطر الاجتماعية والمعرفة .

إن بناء المعرفة وعملها شرط ضروري لكل مجتمع ولكل حياة اجتماعية ولكل نشاط مشترك يقوم به الناس سواء على صعيد جماعات ومجموعات أم على صعيد مجتمعات برمتها ، ولهذا تتدرج المعرفة بصورة عضوية في نسيج النظام الاجتماعي كما أن التقسيمات التي تنبثق في النظام الاجتماعي أياً كانت تنعكس لا محالة في المعرفة فإن تعدد وجوه المجتمع وتطوره والتمايز الداخلي المقترن بتقسيم العمل وبوجود

مجالات مختلفة للنشاط وبمصالح طبقية متضادة وبالصراع بين الفئات الاجتماعية وكل هذا ينعكس بدوره في المعرفة . منذ الإرهاصات الأولى للمعرفة لم تعد العلاقة بين الفكر وموضوعاته مسألة فلسفية بحتة ينشغل بها الفلاسفة وحدهم ، بل أصبحت تلك العلاقة مبحثاً سوسيولوجياً يتصدى فيه علماء الاجتماع لاكتشاف الطبيعة الاجتماعية للعلاقة بين المقولات والأفكار والأنساق الاجتماعية. إن للأفكار دوراً هاماً في تجديد الفعل الاجتماعي ومن ثَم فإنه من الممكن إجراء دراسة ميدانية للعلاقات بين الأطر الاجتماعية والمعرفة ورصدها في الأفعال الاجتماعية والصراعات والمصادمات التي تحدث بين جماعات اجتماعية معينة وتختلف أنواع المعرفة و أشكالها من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى داخل المجتمع الواحد وكقاعدة عامة ولا يوجد تطور حتمي أو خطي أو آلي للمعرفة كما لا يمكن لأي قوة اجتماعية تجميد أي ظاهرة اجتماعية وبالأولى المعرفة.

يعد كارل مانهايم الأب المؤسس لعلم اجتماع المعرفة وتصوره على أنه الدراسة الوجودية للمعرفة وأن المعرفة تتحدد من خلال الوجود الاجتماعي مع العلاقة بين العالم الاجتماعي والمعرفة ، وأتم مانهايم هذا العمل من خلال تأثره بمن سبقوه وخصوصاً ماركس ولابد هنا إلى الإشارة إلى أن مانهايم كان بعيداً عن الماركسية ، ووفقاً ل "ميرتون" (١٩٥٧) فإنه قال " أن علم اجتماع المعرفة ينطوي على دراسة منهجية للأفكار أو الظواهر الفكرية ، و في أوائل عام (١٩٧٠) نظر " مايكل يونغ " لعلم اجتماع المعرفة على أنه هيئة متميزة من الطابع الاجتماعي للمعرفة ، ويهدف مانهايم من ذلك العلم إلى تقييم الجذور الاجتماعية للمعرفة .

عمل مانهايم على تحرير المعنى والوعي من تبعيتهما للبناء التحتي وعاد للأخذ بالعلاقة الجدلية في علاقة الفكر والمعاني والوعي بالبناء الاجتماعي والواقع الاجتماعي عامةً ، فالمعرفة وسيلة تكيف الإنسان مع محيطه وفي الوقت نفسه تكييف

هذا المحيط بما يتناسب مع حاجاته و أغراضه ولأن هذا المحيط البيئي متغير فلابد نتيجة العلاقة الجدلية من تغير موازٍ في المعرفة ، وفي محاولته بناء علم اجتماع المعرفة أختار مانهايم التركيز على التركيز على بناء الفكر وأنماطه في علاقاتها التبادلية والجدلية بالبناء الاجتماعي وجعل من هذه العلاقة التعبير عن الحقيقة التاريخية ، فالبناءات الفكرية للجماعة تعبر عن تصورها للحقيقة الاجتماعية في الوقت الذي ترتبط فيها هذه الأفكار والتصورات بالواقع الاجتماعي للجماعة وينسحب هذا الربط بين البناءات الفكرية والواقع الاجتماعي ليشمل صحة ومصداقية المعرفة ، فكل جماعة تعيش ظروفاً تاريخية خاصة وبالتالي لها طريقتها الخاصة في رؤية العالم وبهذا تتشكل منظورات متعددة يمثل كل منها منظوراً خاصاً وجزئياً للحقيقة وتتباين هذه المنظورات بتباين الجماعات وظروفها التاريخية.

وبناءً على هذا التباين في البناءات الفكرية للجماعات الإنسانية لم يعد من المنطق القول بصحة أو خطأ البناء الفكري لأي منها إذ تصبح المسألة نسبية بحيث يمثل كل بناء فكري منظوراً خاصاً للحياة والأشياء في إطار ثقافة الجماعة .

أكد مانهايم على أن ظروف الوجود لا تؤثر في الأصول التاريخية للأفكار و إنما تؤلف جزءاً أساسياً من إنتاج الفكر ، ولكن لماذا أنتشر المفهوم الاجتماعي للمعرفة في هذه الفترة بالذات ولم يظهر في عصور سابقة ؟ يجيب مانهايم على هذا فيقول إن هناك جملة من الظروف هي التي أدت إلى تبلور المفهوم الاجتماعي للمعرفة ومن هذه الظروف بروز النسبية في ميدان علم الفيزياء على يد أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥) وتعميمها على ميادين المعرفة والمجتمع بالإضافة إلى بروز العقلانية في عصر الأنوار وما نتج عنها من تبدل أساسي طرأ على نظام القيم السائدة ، وبالنسبة لمانهايم لو ظهرت تلك الظروف في عصور سابقة لكانت الدراسات الاجتماعية للمعرفة قد ظهرت منذ تلك العصور .

ثالثاً : منهجية البحث في علم اجتماع المعرفة :ـ

يعرف مانهايم علم اجتماع المعرفة بأنه نظام معرفي يحاول الكشف عن اعتماد الآراء ووجهات النظر الفكرية والعقلية اعتمادا وظيفياً على واقع الجماعات الاجتماعية المتمايزة التي تساندها وهو أيضاً العلم الذي يضطلع بمهمة تتبع تطور هذه المنظورات والآراء المختلفة وباختصار هو دراسة الطرق التي من خلالها تؤثر العوامل الاجتماعية في كل النتاج الفكرية والعقلية والمعرفية فهو يربط المعرفة بالشروط الاجتماعية ويحلل صلة الفكر بالوجود الاجتماعي والمواقف التاريخية ويفسر مختلف النظريات والأفكار بالرجوع إلى المواقف الاجتماعية الكلية التي صدرت عنها ، أو بعبارة أخرى يؤلف بين الفكر والوجود الاجتماعي أو يربط المعرفة بالثقافة والتاريخ .

يعد مانهايم واحداً من مؤسسي علم الاجتماع كعلم منهجي متماسك وموحد وهو يعتقد أن علم اجتماع المعرفة يمكن أن يساعد في حل الصراعات في المجتمع الحديث . ميز مانهايم بين مجالين متباينين من المعرفة : الأولى وهي المعرفة التي تستمد من البيانات العلمية ، والثانية المعرفة القائمة على الطبقة مثل الأشكال الدينية والفلسفية والتقليدية للمعرفة وكان لكلاً من سلفه من أمثال " ماكس فيبر " و"جورج لوكاش " المعاصرين تأثيراً قوياً على عمل مانهايم .

حيث أنه تأثر "بماكس فيبر " من خلال اعتبار الفعل الاجتماعي من خلال عملية التفاعل أساس تشكل البناءات والنظم الاجتماعية والثقافية ، فالمجتمع عبارة عن شبكة اتصال يتفاعل فيه الأفراد ضمن نمطين أساسين من الأفعال موزعة بين الفعل التقليدي والفعل العقلاني حيث يتم التفاعل على أساس ما تحمل الأفعال من معاني يختار فيه الفرد مسار فعله بناءً على ما تم تبنيه من معاني من قبل الجماعة التي ينتمي إليها بما في هذا وضع الفرد الطبقي وجماعته.

إن أساليب الفكر تمثل كليات في ذاتها لذلك يصعب فهمها من خلال وجهة النظر السوسيولوجية عن طريق المقاييس والوسائل الكمية ، لذلك كان من أهم المبادئ المنهجية التي وضعها مانهايم هو استحالة تحليل الكل والمركب في ضوء الجزء والبسيط، وفي استعراضه لكتاب "لوكاتش " (نظرية الرواية) عام ١٩٢٠ ذهب مانهايم إلى أن تفسير الموضوعات الثقافية يجب أن يتم " من أعلى " طالما أن الصورة الفنية ليست إلا واحدة من المقومات المجردة للمحتوى الروحي وأن تفسير الجزء المجرد لا يكون ممكناً وله ما يبرره إلا إذا أنطلق بداية من الكل ، والحقيقة كان هذا المبدأ المنهجي هو ما عزل علم الاجتماع الذي قدمه مانهايم عن التراث الوضعي . ومن هنا تقبلت منهجية البحث في علم اجتماع المعرفة عند مانهايم العلوم الوضعية قبولاً جزئياً وغير كامل ، فالمنهج الميكانيكي الذي يفتت الكل إلى وحدات جزئية ودقيقة منهج لا يتلاءم في نظر مانهايم مع العلوم الاجتماعية كما أن المفاهيم الثابتة عن العلم الطبيعي والرياضيات تتعارض مع المفاهيم الدينامية للعلوم الاجتماعية والتاريخية . إن العلم الاجتماعي يشتمل على دراسة معاني خبرة وتجربة الأفراد الذين يكونون موضوع الدراسة أما العلوم الطبيعية لا تواجه بمثل هذه المشكلة ، فالذرات مثلاً لا تأخذ هذه المعاني حين تجرى عليها التجارب الذرية. وفي مقابل رفض مانهايم للمنهج الوضعي فقد أكد على المدخل الجشطلتي لفهم الفعل فهو يرى أننا لن نفهم الجزء ما لم نفهم الكل ولذلك لكي نفهم فعل الفرد فعلينا أن نتبنى مدخلاً يضع في اعتباره وجهة النظر الإنسانية الكلية . إن استشراف العالم ككل مسألة ضرورية إذا أراد الفرد أن يفهم فعل أي جزء من العالم ومن خلال هذه النظرة نستطيع أن نبدأ بدراسة مسلمات ومبادئ الجماعات المتصارعة في العالم كما نستطيع أن نتتبعها لنتعرف على طبيعة و أهداف الجماعات التي تتمسك بها .

رابعاً : النسبية عند كارل مانهايم :ـ

أولاً: مقدمة عامة عن نظرية النسبية :ـ

النسبية هي نظرية فيزيائية وضعها " أينشتين " * على مرحلتين : الأولى تدعى مرحلة النسبية المقيدة عام ١٩٠٥م ، وتدعى الثانية مرحلة النسبية المعممة انطلاقا من عام ١٩١٣م . إن المعرفة البشرية تتميز بكونها نسبية ، الأمر الذي يمكن فهمه بعدة معاني مختلفة وحسب تحليل "هاميلتون " تكون المعرفة نسبية إذا :

١ – لا يكون الوجود قابلاً بذاته للمعرفة معرفة مطلقة في أنماطه أو مظاهره ، بمعنى آخر لا يمكن للمرء أن يعرف الأشياء بل العلاقات فقط.

٢ – إذ لا يمكن لفاعل أن يعرف هذه الأنماط إلا إذا كان يملك ملكة قادرة على إدراكها في هذه الحالة يتعين على المرء أن يفهم النسبية بوصفها حداً على الأخص.

٣ – بحيث أن هذه الأنماط لا تبلغ معرفة العقل إلا معدلة من قبل الملكات ذاتها ومندمجة مع نشاط العقل ويرى هاميلتون أن نظرية النسبية صحيحة في كل من هذه المعاني .

النظرية النسبية كرأي علمي :ـ

إن النظرية النسبية هي مجموعة من الآراء والحقائق العلمية والتي نشأت نتيجة تطور العلوم الرياضية والطبيعية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي وشأن النظرية النسبية شأن أية نظرية علمية أخرى فهي أقوال يراد بها تفسير حقائق، فأساسها إذاً الحقائق الملموسة فليست النظريات العلمية نوعاً من الحدس والتخمين وليست ضرباً

من ضروب التكهن ، والنظريات العلمية ضرورة من ضرورات تقدم العلم فالحقائق التي نصل إليها عن طريق التجارب العلمية أو عن طريق المشاهدة لا يمكن أن نتركها مبعثرة غير متماسكة بل إن الفكر البشري يعمل على الجمع بينها في نظام واحد متناسق يربط أجزائها ويجعل منها وحدة متصلة من التفكير . هذه الوحدة المتصلة من الحقائق هي ما يسمى بالنظرية العلمية وهي في تطور مستمر فهي تنمو بنمو المعرفة البشرية وترتقي بارتقائها .

ولا تقل النظرية النسبية عن نظرية "كوبر نيك " * في القرن السادس عشر أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس وهي نظرية علمية واضحة للعيان وهي فاتحة عصر جديد في تطور العلوم الفلكية ولا تقل النسبية عن هذه النظرية في أهميتها الانقلابية فهي تعتبر أيضاً فاتحة عصر جديد في تطور العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية بل وفي تطور الفكر الفلسفي ذاته . وتعد آراء كوبرنيك آراء انقلابية في التفكير البشري لأنه طلب من البشر أن يعدلوا عما كانوا يظنونه بديهياً و أن ينظروا إلى العالم من وجهة نظر جديدة لم يألفوها ، فالفكر البشري يسلم ببعض القضايا على أنها بديهية لا تحتاج إلى إثبات لأنها بسيطة وبحيث لا يتصور أن يختلف فيها اثنان ، وهذه المسائل التي تبدو بديهية هي التي يطلب أمثال "كوبرنيك " و" أينشتاين " من الناس أن يبحثوا فيها و أن يصلوا من بحثها إلى قلب أوضاعها رأساً على عقب بحيث يصبح خطأ ما كان بديهياً ويسلم العقل بما لم يكن يتصور التسليم به من قبل .

خامساً : البعد الفلسفي لنظرية أينشتاين النسبية :ـ

أولاً: إن الآراء التي جاءت بها النظرية النسبية ذات أبعاد فلسفية كبيرة تمثلت في عدم الثقة بالتجريبية الحسية التي بقيت تنظر إلى الأجسام والحوادث في المكان من دون أن تدرك الصلة الوثيقة بين المكان والزمان .

ثانياً: ألقت النظرية النسبية الضوء على مفاهيم لم يكن الإنسان يرى فيها سوى الإطلاق، فمع هذه النظرية أصبح كلاً من الزمان والمكان نسبيان ، كما أنها قدمت تصوراً عن فيزياء نيوتن تمثل في أن الزمان والمكان يمتزجان بصورة تامة بمتصل يسمى (المتصل المكاني – الزماني) يتكون من مكان نسبي وزمان نسبي.

ثالثاً: التمييز الذي قام به أينشتاين بين العالم الواقعي كما نراه وندركه بالحواس وبين النظريات التي يكونها العالم من أجل فهم العالم المحسوس و إيجاد الصلة بين هذين العالمين وهو أن النظريات التي يكونها العالم ذات صلة وثيقة بمعطيات الحس.

رابعاً: تولد هذا الموقف الفلسفي عند أينشتاين جراء قراءته للنظريات التي جاء بها الفلاسفة ومحاولة الاستفادة من هذه النظريات من هذه النظريات والأفكار ، فقد قرأ كتابات أفلاطون و أرسطو و أطلع على فكر فلاسفة العصر الحديث مثل ديكارت ، كانط ، هيوم وجون لوك ، الأمر الذي دفعه إلى إيجاد تصور فلسفي علمي للكون أو العالم الذي يعيش فيه و انتهى هذا التصور إلى إيجاد النظرية النسبية الخاصة والعامة .

خامساً : النتائج التي توصلت إليها هذه النظرية توحي إلى الصلة العميقة والوثيقة بين الفلسفة والعلم فعلى الرغم من أن لكل منهما مجاله ومنهجه الخاص إلا أنه لا يمكن للفلسفة أن تستغني يوماً عن العلم ولا العلم أن يستغني عن الفلسفة فكل منهما يستفيد من الآخر ويغذيه بفروضه ونتائجه ، الأمر الذي يوحي بتداخل العلوم بعضها مع البعض الآخر والكل يعمل في حقل واحد هو حقل المعرفة البشرية .

سادساً : مانهايم ومشكلة نسبية المعرفة : مثلت مشكلة النسبية في الكتابات المبكرة لمانهايم المشكلة الرئيسية لعلم اجتماع المعرفة لأنها هي التي تضع في تصوره حدود علم اجتماع المعرفة ذاته ، وكان الحل الذي تصوره مانهايم هو التمييز بين النسبية (بمعنى أن تنسب كل الأفكار إلى موقف ما) وبين الإرتباطية (وهي تعني أن الأفكار وإن ارتبطت بسياقات معينة لا يحكم ببطلانها من منظور الصدق والكذب)، غير أن مانهايم ينتهي إلى الأخذ بمنظور تاريخي هيجلي مفاده أنه و إن كان علم اجتماع المعرفة يربط الأشكال المختلفة للفكر بمواقف اجتماعية معينة ، إلا أن صدق محتوى المنظورات المختلفة يكمن في ارتباطها بحقيقة تاريخية ، ومن ثَم يستخلص الخطأ والزيف في المنظورات المختلفة عن نطاق التاريخ لتصبح مهمة أساسية يضطلع بها المثقفون، وتفادياً للنسبية التي تتضمنها هذه الصياغات السابقة ، طور مانهايم منهجاً للتحليل يربط بين المعنى ألتوثيقي للأشكال والصور الثقافية بكل من السياق التاريخي و الاجتماعي وبالوحدة الداخلية للكل ذاته . وبالرغم من معارضة فيبر للنسبية الثقافية والموقف ألشكي لعلم الاجتماع ، أقترح مانهايم حلاً تاريخياً أي تصوراً دينامياً للحقيقة كمستوى مطلق عن طريقه يمكن الحكم على مدى ثبات المنظورات المختلفة وصدقها وتبنى مانهايم مفهوم " الشمول " (الكل) وذهب إلى أنه على الرغم من ارتباط الأشكال المختلفة للمعرفة بمواقع اجتماعية مختلفة ، إلا أن أي منظور جديد يظهر في مجرى التطور التاريخي يحتوي في الواقع على أفكار جديدة لها قيمتها بالنسبة للحقيقة والواقع التاريخي .

من ناحية أخرى لم ينجح مانهايم في تقديم حل مقنع بالنسبة لمشكلة النسبية التي تمثل المشكلة الرئيسة في علم اجتماع المعرفة فمنهجه في الارتباطية ليس حلاً و إنما طريقة لتجنبها ، فالارتباطية حسب تعريفه " لا توصلنا (وربما لا تساعدنا) إلى

إيجاد العلاقة السببية " بين الفكر والواقع وكل ما نستطيع قوله باستخدام منهج مانهايم هو أن هناك ترابطاً بين الفكرة والواقع الذي تولدت فيه وهذا لا يتعدى التقرير الوصفي لهذه العلاقة فليس لدينا الدليل الكافي لكي نقول بأن واقعاً اجتماعيا بمواصفات معينة سينتج آراء ومعتقدات بمواصفات يمكن التنبؤ بها أو استنتاجها . فالارتباطية – حسب تعريف مانهايم – تقع بالفعل في مصيدة النسبية ولا تتجنبها فإذا كانت الفكرة صحيحة صادقة فهي تعكس الواقع المحدد بصورة صحيحة وتعبر عنه بصدق فكيف إذاً نستطيع التوصل إلى أسس عامة ومعايير مشتركة للصحة والصدق في الفكر والمعرفة؟ صحيح أنه لا يجوز الحكم على قيم وآراء مرحلة تاريخية أو عصر من العصور من منظور مرحلة لاحقة أو عصر غيره وهو ما يعرف اليوم " بالمغالطة التاريخية " إذ ينبغي أن تقرأ مراحل التاريخ قراءة تزامنية حيث أن الفكر والمعرفة يتغيران ويتحولان تبعاً لما يحدث من تغير في العلاقات الاجتماعية ، بل إن مانهايم محق في اعتباره بأن ما هو سياسي أكثر عرضة للتزييف والتحريف الأيديولوجي ، فوجود الفرد في مجتمع رأسمالي أو مجتمع اشتراكي أو مجتمع مسيحي أو أسلامي سيقرر الكثير من آراء هذا الفرد وقيمه وأحكامه سواء علم هذا الفرد أو لم يعلم .

إن فكرة الأيديولوجيا يتم تحديدها من خلال المقارنة بين المعرفة الاحتمالية في سياق معين مع المعرفة غير الاحتمالية في سياق غير معين ، و أن أمكانية تحقيق هذا الفصل كان موضوع العلم الذي أسسه مانهايم في الأيديولوجيا واليوتوبيا والذي يتمثل في أن المعرفة لها سوسيولوجيا وأنها تكون ناتج سوسيولوجي ولذلك هي احتمالية وهنا تكون المعرفة مثل العلم الطبيعي يفترض أن تكون محايدة ، موضوعية وفوق القوى المتصارعة في المجتمع والثقافة .

إن النسبية هي من نتاج المنهج السوسيولوجي التاريخي الحديث القائم على الاعتراف بأن كل التفكير التاريخي مرتبط بالمركز الملموس للمفكر في الحياة ، وتضم النسبية هذا الاستبصار السوسيولوجي التاريخي مع نظرية قديمة في المعرفة لم تكن

تدرك لم تكن تدرك التفاعل بين ظروف الوجود و أنماط الفكر ، وكانت تصوغ المعرفة على شكل نماذج أصلية ساكنة متمثلة في الافتراض القائل أن ٢+٢ =٤ ، بحيث كان هذا النموذج القديم للفكر يعتبر مثل هذا المثال نموذجاً لكل الفكر وكان بالضرورة يرفض كل أشكال المعرفة التي كانت تعتمد على وجهة النظر الذاتية وعلى الوضع الاجتماعي للشخص العارف والتي كانت لذلك مجرد معرفة " نسبية " ، إذاً فإن النسبية تدين بوجودها للتناقض القائم بين هذا الاستبصار الذي تم الفوز به حديثاً ونظرية المعرفة التي لم تكن تأخذ هذا الاستبصار الجديد في الحسبان ، و إذا كنا نرغب في تحرير أنفسنا من هذه النسبية فلابد أن نفهم بمساعدة سوسيولوجيا المعرفة أن ما يتعارض مع النمط الفكري الذي يأخذ الوضع الاجتماعي بعين الاعتبار ليس الأبستمولوجيا بأي معنى مطلق ، وإنما هو نمط معين من الأبستمولوجيا سريع الزوال تاريخياً . وفي الواقع فإن الأبستمولوجيا واقعة في شراك العملية الاجتماعية تماماً مثل تفكيرنا كله وهي لا تتقدم إلا بمقدار ما تسيطر على المضاعفات الناجمة عن التغيرات في بنية الفكر.

رغم كل ذلك ومع بقاء مشكلة " نسبية المعرفة " بدون حل فإن علم اجتماع المعرفة بالطريقة التي عرضها مانهايم في كتابه " الأيديولوجيا واليوتوبيا " لم يفقد أهميته من حيث المسألة الرئيسية التي يثيرها ، إذ أن مجال البحث في هذا الموضوع وما يتفرع عنه ويتشعب من قضايا ما زال بابه مفتوحاً على مصراعيه ، ولا بد أن يعلم المرء أن سعيه لدحض آراء الخصوم وتفنيدها ليس هو الطريق الوحيد المؤدي إلى الحقيقة ، بل إن آراء المرء نفسه ومدى صدقها ستكون بدورها مجالاً للبحث الموضوعي وعرضة للدحض والتفنيد.

يؤكد مانهايم على أن الأبحاث العملية والتجريبية بشكل خاص يمكن القيام بها بشكل مستقل تماماً لكن الحصول على نتائج نظرية المعرفة من الأبحاث العملية وإن كانت ممكنة إلا أنها لا تعد شيئاً يذكر بحيث يمكن أن تعد ضرورية لإكمال البحث

العملي ، وبناءً على ذلك فإن علم اجتماع المعرفة في البعد العملي كما يراه مانهايم عبارة عن " نظرية التعين الاجتماعي أو الحياتي للتفكير الواقعي " هذه النظرية مخالفة لرأي هيجل حيث يكون نمط التفكير في تطوره التاريخي كتابع لعمل القوانين الثابتة والباطنية للعلم ، أي ينظر إليه بأنه ينطوي على نوع من الديالكتيك الداخلي ، وعلى العكس من ذلك فإن علم اجتماع المعرفة لمانهايم يوضح كيف أن ظهور وصياغة أنواع الفكر يخضع لتأثير عوامل من خارج نطاق العلم أي العوامل الاجتماعية ، فالظروف الاجتماعية في كل مرحلة هي التي تحدد نوع العلم أو نمط التفكير في تلك المرحلة ، ويرى مانهايم أن هذا الأمر لا يصدق فقط في مسألة ظهور الأفكار بل إن هذه العوامل الوجودية تترسخ أيضاً داخل النموذج ومحتوى الأفكار ، وأشتهر هذا الرأي النسبية.

مثلت هذه النقطة محور نقد النقاد لمانهايم وبهدف تحاشي الانتقادات الموجهة لمصطلح النسبية استخدم مانهايم مصطلح العلاقية بدلاً عنه ، ففي المذهب النسبي جميع الآراء المخالفة للحقيقة وبسبب تكونها ضمن الظروف الاقتصادية و الاجتماعية الخاصة ينظر إليها كمعارف تبتعد بشكل أو بآخر عن الحقيقة ولهذا السبب لا تكون ذات قيمة ، وفي نفس الوقت لا يوجد أي معيار يمكن على أساسه مقارنة هذه الآراء المختلفة مع بعضها وتقييمها وهذه مشكلة موجودة في المذهب النسبي والمذهب العلاقي أيضاً على حد سواء.

على الرغم من تأكيد مانهايم على مصطلح العلاقة فإن الاختلاف هو في شكل التعبير عن الموضوع فقط ، ففي المذهب النسبي يصار إلى التأكيد على الحقيقة التالية: إن أي رأي صادر هو ناجم من زاوية رؤية خاصة تجاه حقيقة معينة كما أن هذه النظرية تتضمن الأمر التالي: لا وجود لأي مفهوم مستقل عن الواقع بل هي أنماط من التفكير، فلا يمكن أن نتصور الحقيقة المطلقة فيها مستقلة عن القيم ومكانة الفرد ودون أن تكون مرتبطة بالظرف الاجتماعي.

يسعى مانهايم من خلال نظرية (النسبة أو العلاقة) إلى رفض مفهوم القيم الكونية والتقدم بمقترح القيم المرتبطة بأي ظرف خاص بدلاً عنها ، وهناك جملة من الانتقادات أوردت على نظرية علم اجتماع المعرفة لمانهايم وتشمل الأبعاد النظرية والعملية ففي البعد العملي ترتبط نظرية المفكرين المتحررين أو المستقلين بشكل مباشر بالحل الذي تقدم به مانهايم بخصوص مسألة النسبية ، ذلك أن المفكرين وحدهم القادرون على الحصول على فهم تام ومعتبر للواقع الاجتماعي ، وفي نفس الوقت انطلاقا من عدم تقديم أي معيار عملي لتمييز المفكرين عن سائر الأفراد المتعلمين في المجتمع فإن هذا المفهوم بحد ذاته يثير التساؤل ، والسؤال هو : من الذي بإمكانه أن يقرر أن فرداً أو مجموعة اجتماعية خاصة تعود لفئة المفكرين أم لا ؟ يهاجم (أدورنو) في مقالة له تحت عنوان (علم اجتماع المعرفة ووعيها الذاتي) عقلية مفكري مانهايم باعتبارها أمراً خيالياً غير حقيقي فيقول: " إن خيالية هذه العقلية تنطوي على الحقيقة التالية وهي أنه جاء في تبيين الغاية من اختيار المتميزين في هذه المجموعات الخاصة على أنه جاء كحصيلة لنوعٍ من منهج الانتخاب العيني في حين أنه لم ينتخب هذه النخبة أي شخص على الإطلاق سوى هم أنفسهم " .

أما النسبية التي يعدها مانهايم فكرة غير قابلة للتحقيق من وجهة نظام اجتماعي معين قائم سلفاً ، فهي مقولة صحيحة نسبياً لأن الذهنية التي يحملها الفلاح عن مجتمعه الأول غير مقبولة في مجتمعه الثاني، فالفلاح الذي عاش ضمن مفاهيم مجتمعه لا شك أنها ساهمت في تشكيل جزء كبير من تطلعه الشخصي والشامل ، وفي حال انتقاله إلى مجتمع جديد فإنه سيواجه مفاهيم جديدة وتطلعاً مغايراً لتطلعه .

قائمة المصادر والمراجع

١- إبراهيم مصطفى إبراهيم و آخرون : قضايا فلسفية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ب.ت ، ٥٢:٤٥

٢- د٠ صلاح إسماعيل : نظرية المعرفة المعاصرة ، الدار المصرية السعودية ، القاهرة ، ب٠ت، ص ٢١

٣- إبراهيم مصطفى إبراهيم آخرون : قضايا فلسفية ، مرجع سابق ، ص ٤٨:٤٧

٤- مقال نظرية المعرفة ، جريدة المعرفة ، موقع.https://www.marefa.org

٥- عبد المنعم الحفني : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، ص ٨١٦:٨١

٦- صلاح إسماعيل : نظرية المعرفة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٢٩:٢٨

٧- إمام عبد الفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، ص ٢٥٧:٢٥٦

٨- مقال رائد عبيس : التحولات المذهبية للنقد ، جريدة الحوار المتمدن ، ٢٠١٧م ، https://www.elhewar.org

٩- جميل صليبا : المعجم الفلسفي :ج٢ ، دار الكتاب العالمي ، لبنان ، ١٩٩٤م ، ص ٣٩٢

١٠- مقال د. رشيد الحاج صالح : المعرفة العلمية بين العوامل الاجتماعية والبنية المنطقية ، عدد ١ ، مجلة عالم الفكر ، ٢٠٠٧م

١١- مقال أيمن الناشف : الأصول الاجتماعية للمعرفة ، مجلة الحوار اليوم ، ٢٠١٥م ، https ://www.alhewartoday.net

12- Edmore mutekwe:acritic of the sociology of knowledge. University of gohannesburg ,vol 2012 , p3.806

١٣- إبراهيم عيسى عثمان : الفكر الاجتماعي والنظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع ، ط١ ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، ٢٠٠٩، ص ٢٣٥:٢٣٤

١٤- السيد عبد العاطي السيد : علم اجتماع المعرفة ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٠ ، ص ١٩٩

15- karl mannhime essay : critical essays, https://www.enotes.com-

١٦- إبراهيم عيسى عثمان :الفكر الاجتماعي والنظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص - 2349 السيد عبد العاطي السيد :علم اجتماع المعرفة ، مرجع سابق ، ص 204:200

١٧- اندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية ، تعريب أحمد خليل ، المجلد الثالث ، ط1، بيروت ، 1996، ص 1202

١٨- د .علي مصطفى مشرفة بك :النظرية النسبية الخاصة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1945م ، ص 3:2

١٩- مقال حسين حمزة شهيد: البعد الفلسفي لنظرية أينشتاين النسبية ، موقع https://www.uokufa.edu.iq

٢٠- عصام عبد الله : الصيرورة في الفكر الفلسفي ، كليوباترا للطباعة ، ص ١٧٠:١٧١

٢١- سمير أبو زيد : العلم وشروط النهضة (التصورات العلمية الجديدة والتأسيس العلمي للنهضة العربية) ، مكتبة مدبولي ، ب.ت ، ص ٩٠

٢٢- كارل مانهايم : الايديولوجيا واليوتوبيا ، مرجع سابق ، ص ١٤٨:١٥٢

٢٣- السيد عبد العاطي السيد علم اجتماع المعرفة ، مرجع سابق ، ص ١٠٠

٢٤- عصام عبد الله : الصيرورة في الفكر الفلسفي ، مرجع سابق ، ص ١٧٠

25- George allen sunwin : the phenomenology of mind . London . 1971. P. 250

٢٦- د. أعظم راودراد : علم اجتماع المعرفة وإشكالية النسبية مانهايم أنموذج ، عدد ٥٧، ٢٠١٠ ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية ، موقع https ://www.iicss.iq

27- karl mannhiem : ideology and utopia . 1991 .p. 70

28- rno :the sociology of knowledge and its consciousness in odorno : London . 1967 .p. 38

٢٩- شفيق جبوري : علم اجتماع المعرفة عند مانهايم ، مرجع سابق ، ص ١٢٢: ١٢٣